توظيف الضمائر في السيرة الذاتية
غربة الراعي لإحسان عباس أنموذجا

أ. دبلاوي نادية
د. إبراهيم علي
جامعة أحمد بن بلة وهران 1 (الجزائر)

Résumé :

Les pronoms jouent un role trés important dans l'art du curriculum vitae, ils sont le pivot essentiel sur lequel construit le narrateur son œuvre artistique, quoique leur emploi peut différer d'un écrivain à un autre.

Les pronoms constituent un pont sur lequel traverse le possesseur du curriculum vitae pour évoquer le passé avec toutes ses figures et ses formes on prenant la mémoire comme moyen pour transmettre son expérience.

Il est inévitable pour l'auteur du curriculum vitae de faire appel aux souvenirs, aux lettres et aux exemples dans son travail artistique.

الملخص:

تلعب الضمائر دورا بارزا في فن السيرة الذاتية، فهي المحور الأساسي الذي يبني عليه السارد عمله الفني، إلا أن توظيفها قد يختلف من كاتب إلى آخر.

وتعد الضمائر جسرا يعبر من خاله صاحب السيرة الذاتية لاستحضار الماضي بكل صوره وأشكاله متخذا الذاكرة سبيلا لنقل تجربته

ولا مناص لكاتب السيرة من المذكرات والرسائل والشواهد في عمله الفني.

تقنية توظيف الضمائر في السيرة الذاتية:

نلاحظ أنّ معظم كتّاب السيرة يلجأون إلى ضمير متكلم المفرد (أنا) في سردهم لسيرهم، وقلّ ما نجد السير تسرد بضمير الغائب المفرد (هو).

ويرجع الدكتور عبد الملك مرتاض سبب ذلك إلى أنّ ضمير المتكلم يحيل على الذات، بينما ضمير الغائب يحيل على الموضوع، ويعد عبد الملك مرتاض جماليات ضمير المتكلم فيقول: "إنّ ضمير المتكلم هو ضمير للسرد المناجاتي؛ السرد القائم على ما أطلق عليه المونولوج الداخلي الذي يستطيع التوغل إلى أعماق النفس البشرية فيعريها بصدق، ويكشف عن نواياها بحق ويقدمها للقارئ كما هي وكما يجب أن تكون"[1].

ويتابع مرتاض رأيه في استعمال ضمير المتكلم قائلا:" كما أن كتابة السيرة الذاتية التي تتعامل في الحميمية الذاتية روّجت لهذا الضمير في الانتشار، ولفت انتباه النقاد إلى جمالية ضمير المتكلم الذي يمكن استعماله في مواقف لا يمكن أن يستعمل فيها ضمير الغائب"[2].

ومن هذا كله ندرك تفضيل ضمير المتكلم المفرد على باقي الضمائر في السرد السير ذاتي، ولكن هذا لا ينفي استخدام الضمائر الأخرى وبخاصة ضمير الغائب المفرد (هو).

فأي الضمائر استخدمت في السرد، فإن قدرة الكاتب على مداعبة ألفاظه، تبقى السمة الأبرز في لغة السرد السير الذاتي. "فالضمير أنا في السيرة الذاتية لا يعجز عن تمثّل ثم تمثيل الأبعاد والمراحل، ومن ثم الإلمام بجوانب الشخصية كافة، ولا تكون الرهافة سببا جماليا كافيا لإقناعنا بالكتابة السير ذاتية بضمير الغائب، بل لعلّ ضمير المتكلم ينجز تلك المهمة بجدارة أكثر نظرا لالتصاقه بالذات بشكل حميمي"[3].

نجد أن السارد في فن السيرة يلجأ إلى استخدام ضمير المتكلم (أنا) المحيل على المؤلف الذي يعلن نفسه راويا لقصته، في حين استخدم عدد قليل من كتّاب السيرة ضمير الغائب أسوة بطه حسين في "أيامه".

والطريقة الأمثل في سرد أحداث السيرة الذاتية ينبغي أن تكون بضمير المتكلم (أنا)، وذلك في أثناء حديث الكاتب عن حياته الماضية وهذه الطريقة مباشرة تدل على عمق صدق الكاتب وجرأته في الحديث عن حياته الماضية خاصة في الأمور ذات الحساسية نظرا لخصوصيتها.

أمّا استخدام ضمير الغائب في فن السيرة الذاتية فهو تقنية سردية يلجأ إليها الكاتب بوعي منه للتعبير عن مجريات حياته، واستخدام السارد لضمير الغائب في سرد أحداث السيرة الذاتية أدى إلى اختلاف وجهات نظر العديد من النقاد والكتّاب حول هذه الطريقة في السرد.

يرى إحسان عباس "أن استخدام السارد هذا الضمير ينزع بالسيرة نحو التجرد، والموضوعية في تقديم الحقائق والأحداث التي صاحبت السيرة، فصيغة الغائب تخفف من غلواء العجب وتضخيم الذات الناطقة في السرد"[4].

يقول أحمد أمين في مقدمة كتابه "حياتي": "وأما هذا الكتاب فأنا العارض والمعروض والواصف والموصوف"[5].

ومن الكتّاب من جمع بين ضميرين "نحن" ثم "أنا" أو "هو" ثم "أنا" وذلك تبعا للنمو المتزايد في الوعي بالذات.

وتجربة إحسان عباس في سيرته "غربة الراعي" خير مثال على لعبة الضمائر هذه، حيث نجد حضور الضمير هو (أي الطفل إحسان) في الفصلين الأوليين، إذ يقول: "لم يكن يفهم الرموز في ذلك العمر، ولو كان يفهمها لما فاته أن يرى أنّ درب الحياة التي يسلكها، ويسلكها الناس تفضي بهم إلى مزبلة"[6]، ويقول أيضا "نشأ لدى الصغير منذ البداية افتتان بالصوت العذب الرخيم"[7].

ثم نلمس مراوحة بينه وبين الضمير (أنا) في الفصل الثالث، إذ يقول: "حين حاولت استخراج جواز سفر لأول مرة (سنة 1946) ذهبت إلى دائرة النفوس في مدينة حيفا، واستخرجت شهادة ميلاد"[8].

ظهر الضمير "نحن" (أي التلاميذ) عند الالتحاق بالمدرسة ابتداء من الفصل الخامس، إذ يقول: "كنّا نستمتع بما نتعلم لأنه كان في كل يوم يمثل اكتشافا"[9].

ويلجأ الرّاوي إلى الضمير "نحن" كلما عرض للحديث عن الأصدقاء وزملاء الدراسة مثلما هو الأمر في الفصل العاشر، إذ يقول: "حملنا أوراقنا، وسجّلنا أنفسنا في المدرسة المذكورة ولكنّا بقينا نسكن في حيفا ونسافر يوميا في القطار إلى عكا، ننطلق صباحا، ونعود بعد الساعة الرابعة إلى حيفا. كنّا ستة طلبة"[10].

ويهيمن بعد ذلك ضمير المتكلم (أنا) في التجارب الحياتية اللاحقة مع الفصول المتبقية. كقوله مثلا: "لقد تزوجت قبل أن أحسم الصراع بيني وبين الفقر، وازددت إحساسا بالمسؤولية الباهظة أيام الضياع في القاهرة"[11]. عاش إحسان عباس السنين العجاف في القاهرة عندما عان الفقر المدقع بسبب الأوضاع السياسية في فلسطين.

الذاكرة والخيال : إنّ نقطة الالتقاء بين الذاكرة والخيال تشكل إطارا أساسيا ومنطقيا هاما في تجسيد الأبعاد الحقيقية لمحتوى الذات عند الإنسان، ولتشكل إطارا يجسّد واقعية خياله النابعة من الذاكرة الخصبة المليئة بالاتّجاهات المأساوية والقلقة، فعندما يريد الإنسان استحضار الماضي تتسارع إلى مخيلته ذكريات وخيالات، وصور مختزنة في وعيه ولاوعيه، ولكي تستعيد الذاكرة هذا الماضي لابد من الخيال المتولد في المخيلة الكامنة في أعماق كل منا، والتي تضيء بعض الجوانب التي غشيها ضباب الذاكرة فحجبت عنها وضوح الرؤيا.

"والتذكر عملية عقلية تلتزم مجهودا عقليا قد يطول الوصول إليه في بعض الحالات وقد ينتهي بالفشل لصعوبة التذكر، فالذاكرة المعتمدة على مزج الحقيقة بالخيال، فهي الأرض الخصبة التي تنبت فيها السيرة لتكــون قــادرة نقــل تجربة صاحبها للآخرين، ولتشد انتباه القارئ ليتعاطف معها أو ينفر منها"[12].

والذاكرة ليست آلة صماء تسجل الأحداث والأفكار دون تشويه، أو دون زيادة ولا نقصان؛ وإنّما هي "جزء مــن نسيج الإنسان الحي، يتطور ويتغير، ويخضع أعظم الخضوع لعامل الزمان. فهي لا تحتفظ بكل الآثــار والأفكــار، ولا تسجل كل ما تضطرب به حياة الإنسان من تجارب وأحداث، وإنما هي تميز وتختار، وتأخذ وتدع"[13].

فالكاتب يمارس عملية استرجاع حياته بشكل مكثف، وهذا ما حدث **لإحسان عباس** حين استعان بالخيــال ليعيــد رسم صورة الماضي، إذ يقول: "وفيما هو مشدود العينين إلى التشكيلات التي نأخذ مواضعها على الأفق الغربــي، رأى بينها غيمة قد أصبحت في شكل جمل فاغر فمه، عندها أدركه شيء من الخوف حفزه إلى العودة، فعاد يهمــس لنفســه جمل في الأفق السماوي لعله... الإله الذي يكثر الناس من ذكره"[14]. يريد **إحسان عباس** أن يضيء الزمن الذي كان يوم أن كان طفلا، فالذاكرة لن تعيده إلى تلك اللحظة إذن هو مجبر على ركوب صهوة التّخييل ليصل إلى ذلك الزمان.

لقد تذكر إحسان عباس زواجه من إحدى قريباته الذي فرضه عليه والده ولم يكن إحسان يرغب به، ولــم يجــد مفرا سوى الخضوع لرغبة والده كارها الزوجة والزواج، ويحاول كل مرة أن يؤجّل الزواج لعلّ الله يكتب له انفكاكــا، لكن لم يكن الوقت في صالحه. وتمّ العرس و تزوج إحسان بزوجة غير مقتنع بها، وصارت بهما الحياة الزوجية بكآبــة لم يستطع الزوج تحمّلها، ولكنه أنجب طفلين من هذه الزوجة. ومرة وصل به الأمر بأنّه لم يعد يستطع تحمّــل الســير، وإكمال الزواج، فطلب من زوجته أن ينفصلا وأن تذهب إلى أهلها في فلسطين، وقد كان وقتذاك يــدرّس فــي جامعــة الخرطوم، فجمعت الزوجة أغراضها وتقبلت الأمر لأنها كانت تشعر بأنّه ليس سعيدا في هذا الزواج، وأنّه مغلوب على أمره من قبل والده حين تزوجها، لكنه تراجع عن قراره وطلب من الزوجة أن تبقى والأطفال يعيشون معا.

في بعض الأحيان يدخل الحلم في ثنايا السيرة الذاتية، فالأحلام جزء من حياة صاحب السيرة، سواء كانت أحلاما عادية أو أحلام يقظة، وتأتي هذه الأحلام تبعا للحالة النفسية التي يكون عليها صاحب السيرة، وتلبية لطموحاته المختزنة في لاوعيه. ويبرز ذلك في الفصل الثالث عشر من سيرة إحسان عباس، إذ يقول: "وفي الليلة التي نويت أن أسافر فــي صباحها إلى مصر رأيت في ما يرى النائم أني واقف عند شجرة الغرقد التي يعلق الناس عليها مزق الثيــاب، اعتقــادا منهم أن لابد أن يكون ولي قد دفن تحتها، عند أرض لنا تقع عند قاعدة جبل الرأس، حيث الطريق التي تتجه من القرية إلى السوامرة، والمطر يهطل بغزارة شديدة، وقد غمر الماء الطريق وأخذ يرتفع مع ارتفاع الجبل، وازداد ارتفاعه وأنا أصعد ووالدي يناديني أن أرجع، وأنا أقول له: سأتوغل في الجبل إلى قمّته وعندها لن يدركني الماء، وكانــت الأرض تزدان بالخضرة كلما نظرت ورائي حتى لقد رأيت شجرة الغرقد وقد غطّاها الماء ولكنّي على الــرغم مــن ذلــك أرى الخضرة تغمر السهل، وعندما يئس أبي من عودتي كفّ عن النداء، وكان حلما يستعيد قصة الطوفان ونوح وابنه، وظل واضحا في ذاكرتي سنوات بعد ذلك"[15]. وأصبح إحسان عباس الذي غسلته الأمطار الغزيرة يؤمن بأن العلم وحده هــو القادر على تجديد طاقة الحياة، وهو القادر على الأخذ بيده نحو عالم أكثر خصوبة وبهجة من عالمه الأرضي.

إن مصدر السيرة الذاتية الحقيقي والمؤثر في القارئ ينبع من المنهل العذب لينبوع الــذاكرة النابضــة بالخيــال الخصب.

الواقعي والفني في غربة الراعي: يعتبر الصدق والصراحة من أهم الشروط الواجب توفرهما في كتابة السيرة الذاتية فتميزت بهما عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى كالقصة، والرواية، لذا ينبغي على كاتب السيرة أن يبني ما يكتبه علــى أساس متين من الصدق التاريخي، فإذا ضعف هذا العنصر في السيرة لم تعد تسمى سيرة، "فالصــدق التــاريخي يكــبح

جماح الخيال، ويدعه يقف عند الحقائق يعرضها ويرتبها ترتيبا خاصا... فالقاص حر في الخلق والبناء... أمّا كاتب السيرة فلا بد له من مذكرات ورسائل وشواهد يعتمد عليها في كل خطوة"[16].

ويخلص إحسان عباس إلى القول: "إن كاتب السيرة الذاتية لا يصوّر نفسه فحسب، وإنّما يحكم عليها، ويحاول أن يتجرّد من الرابطة العاطفية التي تشده بها... ولكن الصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية صدق نسبي، مهما أخلص صاحبها في نقلها على حالها ولذلك كان الصدق في السيرة الذاتية محاولة لا أمرا متحققا"[17]، لهذا لم يستطع إحسان عباس أن يبوح بكل شيء في سيرته، وأن يجهر بالقول، فهو لم يبارح حد الحشمة، إلاّ أنّه كان أكثر صراحة وصدقا في الحديث عن علاقته بزوجته.

هناك الكثير من الحوائل التي تحول دون تحقق الصدق في السيرة الذاتية منها النسيان الطبيعي، والنسيان المتعمّد، ثم إن الذاكرة لا تنسى فحسب، بل هي "تفلسف الأشياء الماضية، وتهدم وتبني حسبما يلائم تجدد الظروف وتغيرها، ومن ضروب التغيير الواعي فيما نذكره ونكتمه أنّنا لا نقول كل ما نعرفه عن الأحياء، لئلا ينالهم الأذى من صراحتنا"[18]، لا يمكن أن نجد سيرة ذاتية تمثل الصدق الخالص، لأن حياة صاحبها مزيج من الحقيقة والخيال.

وللوقوف على مدى الصدق والصراحة نقلب صفحات من سيرة إحسان عباس **غربة الراعي** وخاصة ما يتصل بالجانب الشخصي من حياته. لقد تناول الرّاوي بالحديث عن تجاربه العاطفية في الفصلين الخامس، والحادي عشر، أمّا الفصل الثاني عشر تحدث عن علاقته الزوجية بكل قسوة وصراحة.

كان حديثه في الفصل الخامس عن فتاتين جميلتين، إذ يقول: "كنت أقطع المسافة من بيتنا وأخترق ساحة القرية ثم أصعد إلى المدرسة وإذ أمرّ في طريقي ببيت يجلس فيه فتاتين جميلتين، كنت أتعمّد تسوية الكيس حتى أمنح نفسي فرصة لإلقاء نظرة على إحداهما كنت أراها من بعيد بيضاء ذات شعر أسود حالك مفروق من وسطه، ولكنّي لم أرها أبدا واقفة لأصف طولها وقوامها، كنت أعرف أني مخطئ تمام الخطأ في أن أتّخذ الناحية الثقافية علامة على ما بلغته في سن الثامنة أو التاسعة ... وكنت أعلم أن الفتاة لا تعبأ بي، وأن مظهر الطفل كان أغلب عليّ وكنت أعلم أيضا أن الحب ممنوع في الريف"[19]، فالعادات والتقاليد المتواجدة في الريف هي قيود، تحرّم الحب وكأنه جريمة ارتكبها الإنسان، ولابد من أن يعاقب عليها.

لقد حجب إحسان عباس أسماء بعض النساء ممّن إقترنت حياته بهنّ في صباه، وفتوته مراعاة للتقاليد العربية، ومبالغة في التحرّز، "بدأت هذه العطلة الصيفية في القرية متوترة، وظلت كذلك فقد حدث ذات يوم أن لقيت فتاة بدا لي أنّها جميلة، فخفق لها قلبي وأصبحت أحرص على أن أراها اتفاقا أو تعمدا، ولو لمحة، وسأطلق عليها اسم "نوار" ولكني لم أفاتحها بكلمة واحدة، ولم تحس بوجودي ولم تعرف شيئا عن مشاعري نحوها... وما كنت أعلم أن "نوار" ستكون هنالك، وقد جلسنا معا في ظل شجرة على مقربة من الحقل، ولكني لم أجرؤ على ابتداء حديث معها، إذ كنت أجهل كيف يكون الحديث إلى فتاة لا أجد وإياها أرضا مشتركة نقف عليها، وهكذا ضيّعت فرصة لن تسنح أبدا، وعدت إلى القرية حين عاد العاملون في الحصاد، وأنا أحس بالبؤس وبعدم القدرة على أن أكون إنسان سويا"[20]، لقد أحس إحسان عباس إحساسا غريبا وغامضا تمثل في فقدانه لنوار؛ لأن كلمة الحب لا مكان لها في قلب مليء بالحزن واليأس، أرضه قاحلة جرداء لا تعطي ثمارا.

ويعترف إحسان مرة أخرى في الفصل الخامس عشر بأنه لم يتمكن وزميل عمره الناقد "محمد يوسف نجم" من أن يلحقا بركب الثورة الحديثة في النقد الأدبي، وما حملته البنيوية، والتفكيكية، والحداثة وما بعد الحداثة لأن "هذا كله قد جدّ بعد الفترة التي كنّا من روادها أو معاصريها... وليس في مقدورنا أن نعيش عصرنا وعصر الأجيال التالية لنا"[21]، وما يتحسّر عليه إحسان عباس بصدق نادر ليس الجهل بأمر هذه المدارس التي اطّلع عليها هو الفضولي المطارد للمعرفة، وإنّما عجزه عن أن يكون بداخلها وفيها وجزء من ديناميكيتها.

أحكمت سيرة إحسان عباس طوقها على النزعة الاعترافية، فهو لا يبارح حد المحافظة، والحشمة، ولم يستطع أن يبوح بكل ما في صدره، وأن يجهر بالقول، كما أخذ بذلك في كتابه "فن السيرة"، أما شيخوخته فقد آثر السلامة، وعرف الفارق ما بين الشاب والشيخ، ويظهر ذلك في مقدمة السيرة، إذ يقول: "وكنت في شبابي متحمّس للصراحة الكلية في كتابة السيرة الذاتية ولكني حين وقفت أمام التجربة بنفسي وجدت أن حماسة الشباب لا تستمر بعد عهد الشباب، وأني لا أستطيع أن أتحمل مسؤولية تلك الصراحة، وأن مجتمعي لا يزال يصد عن تقبلها"[22]، وكان إحسان عباس أكثر صراحة، حيث كان مخلصا مع نفسه عندما تحدث عن علاقته الفاترة لزوجته، وكأنّه أراد من ذلك التنفيس عن كبت نفسي، أو كأنه أراد من ورائه إكمال صورة النموذج الذي ضحى برغباته وإرادته إزاء سيطرة أبيه، فهو لم يكن له يد في اقترانه بزوجته الريفية، ولم يجسر على أن يثور على ما أراده له أبوه، ولكنه أذعن له، نزولا على شروط التقاليد الريفية، وكانت الرغبة في التخلي عن الزوجة تلازمه من حين لآخر ثم لم يلبث أن استكان للأمر، رحمة بالأبناء، ورحمة بتلك المسكينة. ولكنه وجد في سيرته الذاتية متنفسا لكي يبوح بمشاعره الحقيقية تجاه زوجته التي أنبأه أبوه أن حظها من الجمال ليس كبيرا، وأما الثقافة لا يدري عنها شيئا.

وظلّ هاجس التخلي عن الأسرة والقرية عالقا في ذهنه بعد أن تزوج وأصبح أبا، وكان الزواج على ذلك النحو قد تحوّل إلى عقدة نفسية.

---

[1]- د. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 184-185.

[2]- م ن، ص 189.

[3]- ندى محمود مصطفى الشيب، فن السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني، ص 80.

[4]- إحسان عباس، فن السيرة، ص 134.

[5]- أحمد أمين، حياتي، ص 03.

[6]- إحسان عباس، ع س، ص 10.

[7]- م ن، ص 17.

[8]- إحسان عباس، غربة الراعي، ص 21.

[9]- م ن ، ص 24.

[10]- م ن، ص 101.

[11]- م ن، ص 183.

[12]- يحي أحمد عطية، شرط تدخل االخيال في رواية السيرة الذاتية /Omar.ahlamountada.com

[13]- عبد الرحمن بدوي، الموت والعبقرية، مكتبة النهضة المصرية، ط2، 1962، ص107.

[14]- إحسان عباس، غربة الراعي، ص09-10.

[15]- م ن، ص 173-174

[16]- إحسان عباس، فن السيرة، ص 74-76.

[17]- م ن، ص 113.

[18]- م ن، ص 114.

[19]- إحسان عباس،غربة الراعي، ص40.

[20]- م ن، ص 119.

[21]- م ن، ص 235.

[22]- م ن، ص 06.